جذور

«إذا كنا نريد أن يشعر الشباب من أبناء المهاجرين الذين يعيشون في فرنسا، بالمواطنة بشكل كامل، فإنه يتعين على الجمهورية الفرنسية الاعتراف بتاريخ آبائهم وأجدادهم».

ستيفان تروسيل
رئيس مجلس إقليم سانت دوني بشمال باريس

«البعض يسوق لفكرة الإبقاء على جماجم المجاهدين الجزائريين في متحف الإنسان بفرنسا لتكون شاهدة على الجرائم الفرنسية، غير أن الاستعمار لا يحتاج لإثباتات تدينه».

محمد بن ساعو
أستاذ التاريخ بجامعة سطيف الجزائرية

أشواك الذاكرة توخز الأقدام على خط الجزائر باريس

● إخفاء جماجم قادة المقاومة الجزائرية ينكأ جراح التاريخ ● تأمين اللوبي الفرنسي في الجزائر مرهون بالتحفظ على الأرشيف التاريخي

العلاقات بين الدول لا تبنى فقط على المصالح أو التبادل أو الجوار، بل تنهض أيضا على التاريخ والذاكرة. العلاقات الجزائرية الفرنسية مازالت محكومة بماضي الحقبة الاستعمارية، ففضلا عن المطالبة الجزائرية باعتذار رسمي فرنسي عما حصل طوال 130 عاما من الاحتلال، فإن العلاقة تأثرت كذلك باحتفاظ المتاحف الفرنسية بالآلاف من الجماجم للمقاومين الجزائريين، وبأرشيف الفترة الاستعمارية بكل ما يضمه من وثائق.

ذاكرة الحقبة الاستعمارية حبيسة رفوف المتاحف

صابر بليدي

❑ **الجزائر** – تستمر الذاكرة التاريخية في الإلقاء بثقلها على محور الجزائر باريس، رغم مساعي التقارب بين البلدين منذ مطلع الألفية، حيث يهيمن عامل التذبذب وعدم الثقة حتى على أزهى مراحل الانسجام بين القيادتين في الجزائر وفرنسا، الأمر الذي رهن محاولات فتح صفحات جديدة تقوم على الندية والمصالح المشتركة، فمع كل خطوة لجسر الهوة بين الطرفين، تظهر الملفات التاريخية العالقة لتعيد المسألة إلى مربع الصفر.

أكد الإعلامي والباحث التاريخي محمد عباس، لـ"العرب"، أن العلاقات الجزائرية الفرنسية لا يمكن الاطمئنان لها في أي مرحلة من المراحل رغم الروابط المشتركة، وأن الماضي لا يزال يرهن الحاضر وحتى المستقبل، فعدم تسوية ملف الذاكرة وغياب الشجاعة سيؤجلان أي تقارب أو ثقة بين الطرفين. وقال "لا يمكن الحديث عن أي تكامل أو مصالح مشتركة محترمة، في ظل تغلغل الأفكار الاستعمارية في بعض الدوائر الفرنسية النافذة، وغياب الجرأة لدى دوائر القرار في باريس، للاعتراف بماضي بلدهم في الجزائر، كما اعترفوا به في عدد من المستعمرات القديمة، وعليه ستبقى الذاكرة تلقي بمفعولها حتى لدى الأجيال الجديدة من أبناء المهاجرين، وليس لدى عموم الجزائريين في الجزائر فقط".

ورغم أن البعض أدرج التصريحات الجريئة لبعض الجهات المحسوبة على التيار المهادن في هرم السلطة الجزائرية، في سياق الاستهلاك الإعلامي وامتصاص غضب الشارع، إلا أن ما جاء لمرات متكررة على لسان وزير المجاهدين (قدماء المحاربين) طيب زيتوني، والأمين العام الجديد لحزب جبهة التحرير الوطني الحاكم جمال ولد عباس، حول الماضي التاريخي بين البلدين، ينطوي على نية لدى السلطة بعدم طي صفحة التاريخ.

وكان وزير المجاهدين طيب زيتوني، وأمين عام جبهة التحرير الوطني جمال ولد عباس، قد صرحا مرارا، بعدم التنازل عن مطالبة السلطات الفرنسية بالاعتراف والاعتذار عن الماضي الاستعماري لبلدهما في الجزائر، والتمسك باسترجاع الأرشيف المحجوز في فرنسا، بما فيه جماجم الجزائريين المحتفظ بها لحد الآن في متحف الإنسان بباريس.

ويرى مراقبون في الجزائر، أن مسألة الأرشيف تشكل قنبلة سياسية تحاول السلطات الفرنسية واللوبي الموالي لها في الجزائر، تلافي الخوض فيها، لأنها ستكشف عن أسرار كبيرة تهدد بالدرجة الأولى مصالح ومواقع اللوبي المذكور، خاصة وأن البعض من رموزه يتواجد في مواقع متقدمة داخل السلطة، وانكشاف الحقيقة يدمر مصالحه ويحرج رموزه أمام عموم الشعب، ويفقد فرنسا عيونها داخل الجزائر.

وحسب الباحث التاريخي محمد بلغيث، فإن مسألة الذاكرة ستبقى حية ومعيقة لأي مصالحة حقيقية بين الطرفين، فمن جهة هناك تغلغل الفكر الاستعماري لدى قطاع عريض من الدوائر الفرنسية النافذة، ومن جهة أخرى هناك جيل في الجزائر صنع ذلك التاريخ، ولا يريد كشف كل الحقيقة للرأي العام المحلي، لا سيما من يحسب منه على جيل الثورة التحريرية، بينما الأصل هو العمالة المحبوكة لأجل اختراق الثورة في بداية الأمر، ثم حماية مصالح ونفوذ فرنسا بعد الاستقلال.

ويرى مختصون أن اللوبي الموالي لفرنسا في الجزائر، أجهض على مدار العقود الماضية، كل محاولات التخلص من التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية لفرنسا، ووقف سدا في وجه مساعي إصدار البرلمان الجزائري لقانون يجرم الاستعمار، كرد منه على القانون الصادر عن الجمعية الفرنسية في فبراير 2005، الذي "مجد عمل الجيش الفرنسي خارج حدود المستعمرات، واعتبر ذلك من قبيل نشر الحضارة وتمدين الشعوب المتخلفة".

وقالت مصادر متابعة للملف لـ"العرب"، إن "جهات نافذة في السلطة تدخلت لدى قيادات أحزاب السلطة، من أجل إجهاض أغلبيتهم النيابية لمشروع تجريم الاستعمار في البرلمان"، وعبر حينها رئيس حزب التجمع الوطني الديمقراطي أحمد أويحيى، عما أسماه بـ"مزاجية وانفعالية المشروع، وأن حزبه يراعي مصالح البلاد".

وجاءت إثارة إدارة متحف الإنسان بباريس لقضية الجماجم البشرية المحفوظة لديه، لتحيي جراح الذاكرة الجزائرية خلال الأسابيع الأخيرة، لا سيما وأن الأمر يتعلق بجماجم أكثر من ثلاثين قياديا من قادة المقاومة الشعبية التي خاضها الشعب الجزائري ضد الفرنسيين على مدار قرن وثلث (1830 – 1890)، الذين فصلت رؤوسهم عن أجسادهم من طرف الجيش الفرنسي، وحملت إلى باريس ثم إلى متحف الإنسان، كما هو الشأن بالنسبة إلى القائدين الشريف بوبغلة (منطقة القبائل) والشيخ بوزيان (الجنوب الغربي).

وأثارت المسألة التي طرحها باحثون في التاريخ كالأستاذ علي فريد بلقاضي، استفهامات عديدة عن المبررات الأنثروبولوجية التي يتحجج بها المتحف، في ظل الإخفاء العمدي لـ36 جمجمة لقادة تاريخيين جزائريين عن متناول الباحثين، حيث لم يتم الكشف عن حقيقتهم إلا في العام 2011، بعد إلحاح من باحثين مستقلين.

ويضم متحف الإنسان بباريس حوالي 18 ألف جمجمة، لأغراض علمية وبحثية، ولم يتم التعرف لحد الآن إلا على هوية 500 جمجمة، منها 36 جمجمة تعود لقادة ثوريين جزائريين، تم فصل رؤوسهم عن أجسادهم في معارك حربية خلال القرن التاسع عشر، وحملت بعدها إلى باريس ثم متحف الإنسان بدعوى البحث العلمي والأنثروبولوجي.

وتساءل الباحث التاريخي علي فريد بلقاضي "لماذا يتم إخفاء هوية الجماجم الجزائرية عن الباحثين والزوار في جناح بعيد عن الأضواء في خزائن كرتونية حملت أرقام أصحابها فقط؟ هم ليسوا لصوصا أو قطاع طرق، بل جماجم ذات بعد تاريخي وأخلاقي، يبدو أنها تزعج الفرنسيين حتى وهي عظام".

وجاءت دعوة رئيس مجلس إقليم سانت دوني بشمال باريس ستيفان تروسيل، الرئيس الفرنسي فرنسوا هولاند، إلى التحقيق في المجازر التي وقعت في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية (1830 – 1962)، لتؤكد حجم تغلغل الملفات التاريخية في مسار علاقات البلدين، وتأثيرها في الضمير الفرنسي.

وطالب ستيفان روسيل، الرئيس هولاند بـ"الاعتراف بمجزرة باريس التي وقعت في 17 أكتوبر 1961، وإعلانها "يوما وطنيا"، وذكر "إن هولاند قلب وعده الانتخابي الذي قطعه بخصوص حق تصويت الأجانب، إلى العكس تماما عبر تبني قانون إسقاط الجنسية".

وأكد المتحدث على ضرورة "إجراء بحث وتحقيق في المجازر التي ارتكبتها فرنسا إبان حرب الجزائر (1954 – 1962)، وضرورة إدراج ممارسات فرنسا الإستعمارية، والأحداث التي أعقبتها، في المناهج الدراسية، وإذا كنا نريد أن يشعر الشباب من أبناء المهاجرين الذين يعيشون في فرنسا، بالمواطنة بشكل كامل، فإنه يتعين على الجمهورية الفرنسية الاعتراف بتاريخ آبائهم وأجدادهم".

وكان حزب جبهة التحرير الوطني الحاكم وقائد ثورة التحرير (1954 – 1962)، قد عبر في بيان بمناسبة الذكرى الثانية والستين لاندلاع ثورة التحرير، المحتفل بها في كل فاتح من شهر نوفمبر، عن تمسكه بما وصفه بـ"المطلب الشرعي" بضرورة اعتراف فرنسا للشعب الجزائري بما ارتكبه الاستعمار من جرائم".

وهاجم الحزب في تحول غير مسبوق فرنسا بالقول "إن سجل الاستعمار ملطخ بالدماء والجرائم والممارسات غير الإنسانية ورغم ذلك فإنهم (الفرنسيون) يتحدثون عن محاسن الاستعمار، ويكرمون الحركي (جزائريون عملوا مع الجيش الاستعماري)، ويصفون الثورة والمجاهدين بالإرهاب والإرهابيين". لهجة الحزب الحاكم الذي يقوده رئيس البلاد عبدالعزيز بوتفليقة، عكست وجود جمود يطبع العلاقات بين البلدين خلال الأشهر الأخيرة بسبب ملفات تاريخية، ولمح بوتفليقة في رسالة له بالمناسبة إلى "رفض بلاده الإشادة بالفترة الاستعمارية من قبل الساسة في باريس. وقال "ما أكثر المجازر التي كانت من قبيل الإبادة أو كادت، والتي تخللت الليل الاستعماري وحقائق الاستعمار التي لن يقوى، أي خطاب يعلو من وراء البحار (فرنسا)، لا على تزييفها ولا على محوها".

ظلّ التاريخ سيبقى مهيمنا على العلاقات بين الدولتين خصوصا مع استمرار استفزاز الفرنسيين للشعب الجزائري، برفض الاعتراف والاعتذار عن جرائم المحتل، بكل ما يترتب عن ذلك من مسؤوليات تاريخية وسياسية.

◄ **إثارة متحف الإنسان بباريس لقضية الجماجم البشرية المحفوظة لديه، أحيت جراح الذاكرة الجزائرية**

التحنيط مارسه العامة.. مقابر صخرية معلقة حفظت سر المومياوات في اليمن

في العام 1983 اكتشفت أولى الدلائل على أن فن التحنيط لم يكن حكرا على مصر القديمة وحدها، حيث عثر على أكثر من مئتي مقبرة منحوتة في الصخر في مناطق جبلية شديدة الوعورة ويصعب الوصول إليها أو مجرد التفكير بأنها قد تحتوي على كنز أثري قابع في بطون الجبال الشاهقة في محافظة المحويت شمال غرب العاصمة اليمنية صنعاء.

صالح البيضاني

❑ الاكتشاف مثل إضاءة على التاريخ اليمني المدفون تحت ركام الإهمال والصراعات السياسية التي لم تترك للمنقبين والباحثين الأثريين فرصة كافية للوقوف على أطلال واحدة من أعظم الحضارات التي عرفتها الجزيرة العربية، فلم يلبث الاكتشاف المذهل أن تلاشى بسبب تطورات الأحداث اليمنية المتسارعة.

الباحث والروائي اليمني المهتم بالتاريخ منير طلال تتبع بشغف موضوع التحنيط في اليمن القديم، وتحدث لـ"العرب" عن بعض الحقائق التي توصل إليها استنادا إلى قراءاته المتعددة في هذا الجانب وتتبعه لنتائج المسوحات الأولية التي أجريت على المقابر الصخرية التي ضمت مومياوات محفوظة بعناية، وعن علاقة اليمن بالتحنيط وجوانب التميز اليمني في هذا الأمر يقول "اليمن هو المصدر الرئيس لكافة مواد التحنيط في العالم القديم وهو ما تؤكده كافة البحوث والدراسات والاكتشافات الأثرية سواء في مصر أو بلاد الرافدين، وقد عثر إلى جانب المومياوات اليمنية على العديد من النباتات ومن ضمنها بذور نبته الميمياء، وهو ما يثبت بأن كلمة 'مومياء' جاءت من كلمة الميمياء، أما بالنسبة إلى كلمة 'تحنيط' فهي أيضا مشتقة من لفظ 'الحناط' أو 'الحنوط' وهو يعني حفظ الجسد باستخدام مواد عطرية ذات رائحة طيبة والمصطلح لا يزال يستخدم حتى اليوم، ومن هنا فإن فن التحنيط في اليمن يكتسب أهمية خاصة فقد شهد اليمن اكتشافات أثرية عديدة للمومياوات كان أغلبها يتم عن طريق الصدفة".

ويشير طلال إلى أن اكتشاف المومياوات في اليمن هو ثاني اكتشاف يثبت ممارسة التحنيط في التاريخ القديم بمنطقة الشرق الأدنى بعد الحضارة الفرعونية، لافتا إلى أن اكتشاف المقابر الصخرية في اليمن يرجع إلى العام 1983 في منطقة شبام الغراس عندما عُثر بالصدفة على خمس جثث محنطة، كانت مكفنة بالجلد المدبوغ، ولُفت بالكتان واستخدم نبات "الرا" لحشو تجويف البطن لامتصاص سوائل الجسم.

وأضاف طلال أن اليمنيين القدامى استخدموا عنصر الزنك كمرسب للبروتين وتجميده ضمن عملية التحنيط، ودلت التحاليل المعملية التي أجريت للمومياوات على أنها تعود تاريخيا إلى ما قبل 2300 سنة على الأقل، وقد تم لاحقا اكتشاف الكثير من المقابر في معظم سلسلة المرتفعات الجبلية اليمنية، ما يؤكد أن التحنيط كان شائعا في اليمن وعلى مختلف المستويات الاجتماعية وليس مقتصرا على الملوك كما هو الحال في مصر القديمة كما كان يعتقد، وتذكر العديد من المصادر التاريخية مثل كتاب "الإكليل" للهمداني بأن الملوك والأعيان وحتى العامة في اليمن القديم كانوا يحنطون جثثهم، وذلك لأن معتقداتهم تؤمن بالبعث مرة أخرى بعد الموت.

وينقل الباحث والروائي التاريخي اليمني منير طلال عن بعض الذين عاينوا ودرسوا المومياوات اليمنية أنها كانت تختلف من عدة جوانب عن المومياوات في مصر القديمة، حيث أنها مكتملة لم يتم التخلص من الأعضاء الداخلية كالمخ والأمعاء والقلب والكلى والكبد والطحال كما في المومياوات المصرية، وفي مصر كانوا يلفون الجثث بنوعية مخصصة من القماش، أما اليمنيون فكانوا يستخدمون الزبيب ودهن الجمل وبعض أوراق النباتات في تحنيط الجثث، كما أن هناك فرقا في بعض المواد المستخدمة في التحنيط، حيث استخدم اليمنيون مادة "الراء" المتوفرة محليا وورق العنب ونوعا من القطران يسميه اليمنيون "المؤماء"، فيما استعمل المصريون مواد أخرى منها نشارة الخشب.

ووفقا لطلال، يعتبر الخبراء اليمن من أفضل الدول عالميا في استخدام طرق التحنيط، ويأتي في المرتبة الثالثة بعد كل من مصر وتشيلي، ويعد التحنيط في تلك البلدان الثلاثة من أجود أنواع التحنيط التي كانت تستخدم قديما على مستوى العالم أجمع.

وعلى الرغم من الوقوف مليا على أساليب التحنيط في اليمن، إلا أن الباحثين لم يتمكنوا من أخذ صورة متكاملة عن الحياة الدينية في اليمن القديم بالعودة إلى وضع المومياوات الجنائزي، والسبب ربما يعود إلى النبش الذي تعرضت له الكثير من القبور في مراحل تاريخية سابقة، الأمر الذي حال دون تمكن المختصين من دراسة وضع الجثث، ودراسة ما إذا كان هناك تركيب خاص لنوعية الأثاث الجنائزي بجانب الجثة، ونوعية الاختلاف في عملية التحنيط وفي التكفين نفسه لأن كل خطوة وشكل وحركة لها تفسير ومدلول ينبئ عن الحياة وطقوس الناس في تلك الحقبة.

ويرى العديد من المؤرخين والباحثين اليمنيين أن المومياوات في اليمن التي لم تأخذ حظها من الاهتمام والبحث، تتمتع بقيمة علمية عالية حيث أنها يمكن أن تسلط الضوء على طبيعة المجتمع الذي عاش في منطقة جنوب الجزيرة العربية، كما أن الدراسة الأنثروبولوجية لها كفيلة بالكشف عن نوعية السكان الذين عاشوا في هذه المنطقة المهمة تاريخيا في حقب زمنية غابرة والحالة الصحية لهم والطقوس التي كانوا يمارسونها، إضافة إلى معرفة التركيب الإثني لسكان جنوب الجزيرة.

ويعتبر العديد من المؤرخين والباحثين اليمنيين أن المقابر الصخرية التي اكتشفت في اليمن واحتوت على المومياوات، تحمل دلالة إضافية عن قدرات الإنسان اليمني الذي استطاع قديما أن ينحتها في الجبال والمنحدرات الوعرة، وهو ما يحفز الكثير من المهتمين بالتاريخ اليمني لمعرفة واستكشاف التقنيات التي مكنت اليمني القديم من تسلق الجبال الوعرة للوصول إلى تلك المناطق الخطرة ودفن الجثث المحنطة فيها.

مقابر صخرية معلقة كشفت قدرات الإنسان اليمني القديم

◄ **مومياوات اليمن تتمتع بقيمة علمية عالية حيث تسلط الضوء على طبيعة المجتمع الذي عاش في جنوب الجزيرة العربية**